سيبـــــاى الـكافلى

آخر نائب للمملكة المصرية بالشام

الأستاذ أحمد رمزى

تتمة ما نشر فى العدد الماضى

كان سيباى من تلك الزمرة الممتازة من الرجال الذين تملأ قلوبهم الدوافع النفسية للعمل والحركة ولا ترضى بغير المعالى والقيادة والسيادة، وكان شجاعاً إلى أقصى حدود الشجاعة لا ترهبه الأخطار، وصريحاً إلى أقصى حدود الصراحة لا يبالى بما تأتى به صراحته من خير أو شر، ما دام فى ذلك إرضاء لنفسه. فكان لا يلين إذا قام عالم من الناس يحاربه أو يؤذيه أو يحط من قدره. ولا يهمه إذا وجد نفسه وحده، يدافع ويناضل عما يقول ما دام الحق فى جانبه.

وبهذا وحده يمكن تفسير مواقفه مع الغورى ورسائله إليه وصراحته؛ فلولا قوة أخلاقه وجرأته لأظهر ليناً وسياسة وكياسة ولانطوى انطواء الغزالى وخير بك وغيرهما وترك العاصفة تمر وأكتفى بفتات الموائد؛ ولـكنه كان قوة والقوة تنتصر ولا تلين.

ولم يكن ينقصه شيء من الذكاء والنجابة ليحل المكانة الأولى بين رجال الدولة المصرية. ولو قدر لها وعاشت لـكان لبطلنا شأن فيها ولذكر اسمه فى التاريخ بين الخالدين من رجالنا.

ولم تحرمه الدنيا فى السنين التى قضاها فيها من شيء؛ فقد أوتى من الهيبة والقوة والنفوذ والاحترام والعلم الشيء الـكثير، كما ابتلته الأيام فلم يسلم من كيد الناس ودسهم ولا من نكد الدنيا ومقارعة الزمن وكان فى كلتا الحالتين صبوراً:

وقد أجمع المؤرخون على أنه رجل يعد برجال.

* * *

أصل سيباى من رجال قايتباى وأعتقه وجعله من أمراء جند مصر، ثم أخـذ يرقى إلى أن تولى وظيفة كافل الممالك الحلبية وهى بدرجة أمير ألف، وذلك فى عهد الغورى. وكان الأتابكى قيت[1] الرجبى يوم بويع الغورى بالسلطان أمير سلاح، وهو الذى تقدم ومعه الأمير مصرباى وأخذا بيد السلطان بالبيعة ونادياً باسمه وهو ممتنع، فبايعه الأمراء والقضاة وغيرهم[2] — فحدثته نفسه بعد حين أن يتسلطن، وكتب إلى نواب مصر بالشام، وإلى سيباى بحلب، فاشتبك الأخير مع نائب القلعة وحاصره وقاتله فاحترقت بسبب الحصار المدرسة الظاهرية الشهيرة بالسلطانية وقتئذ، فنذر سيباى أن يبنى مدرسة مثلها. وقد بر بوعده وبنى جامعه الذى زرناه. فى إبان هذه الفتنة تغير قلب الغورى من جهة سيباى فعزله ثم عاد فضمه إليه وأنعم عليه بإمرة السلاح بالقاهرة.

وفى شوال ٩١١ عين سيباى ثانياً بالشام، وكان الغورى فى نفسه أشياء منه؛ فهو يعلم بأنه بطل من أبطال الحروب لا يخطر للموت على باله، علاوة على أنه من أشجع فرسان مصر وأنجبهم

(١) كان قيت الرجبى فى حملة الأمير أزبك الأتابكى ضد العثمانيين سنة ٨٩١ هجرية فى عهد قايتباى وبايزيد وهو الذى حمل أخبار انتصار الجيش المصرى وجاء بالأعلام التى أخذت ودخل بها العاصمة وسط أفراح الشعب.

(٢) إبن إياس طبعة استامبول حوادث ٩٠٦ هجرية

اللاويون قفوا فى مصاطبكم. أيها الاسرائيليون خذوا مواقعكم»[1]

وهذه الفقرات هى فقرات خاصة بطبقة كما ترى.

وأما قضية «التبويق» فقد رأيت أن النبى (ص) كرهها كما كره استعمال الناقوس. وليس هنالك بين الأذان وبين التبويق أى وجه من أوجه الشبه، اللهم إلا الفكرة والفكرة عامة فى جميع الأديان.

يقول المستشرق ميتوخ: «يظهر من عبارة وردت فى كتاب المقريزى[2] أن الأذان إنما كان تنبيها للرسول عليه السلام وإخباره بحلول وقت صلاة الجماعة، كما كان تنبيهاً لخلفائه من بعده بحلول وقت الصلاة[3]. وقد نبه إلى هذه الفكرة المستشرق بيكر أيضا. وأما الإقامة فأنها علامة لبدء الصلاة أو مقدمة قصيرة للصلاة[4].

جواد على

(١) راجع التلمود (تايد) عن هذه العادات The Priesthood. P, 207. School and Synagogue. uol 2 P, 44 Life under the Law Vol 2 P, 96.

(٢) mittwoch P 2, 1 الخطط ج ٢ ص ٢٦٩.

(٣) mittwoch. P, 45

(٤) mittwoch. P, 25 عن الأذان فى كتب الفقه المختلفة mischcat mosabih — ul — masabip Vol 1 P, 141 دائرة المعارف.

ومن ذوى العزم الشديد(١) ولكنه كان يتخوف منه ويخشاه ولذلك رسم له أن يتوجه إلى دار الأمير أزدمير الداودار وأن يقابله هناك أمير المؤمنين الخليفة المستمسك بالله يعقوب والقضاة الأربعة وبعض الأمراء ، فإذا انعقد المجلس أخذوا عليه المواثيق والأيمان بالطاعة لسلطانه ؛ وقد تم ذلك . ثم لبس الخلعة وخرج عوكب من القاهرة وهو يحمل التقليد بنيابة دمشق .

ويرجع ذلك الشك لأمرين ماسبق من تحالف سيباى وانضمامه لحركة قيت الرجبي المطالب بالعرش ، وبما اتصل إلى علم النورى من بعض المنجمين من أن الذى يلى الحكم بعد النورى يبدأ اسمه بحرف السين . فأخذها السلطان على سيباى وتطير من اسمه ، وأصبح لا يأتمنه ولا يعنى لنصائحه ولا يأخذ بأقواله .

* * *

ولما تولى سيباى النيابة عن مصر بالشام واضطلع بالأمور حتى علم بما بين خير بك نائب مصر بحلب والسلطان سليم العثمانى من اتصالات مكتومة وبالمكاتبة ، فأبلغ الخبر فوراً إلى بلاط القاهرة ؛ ولكن النورى لم يأخذ الأمر جدّياً بل اعتمد على قوة المصريين فى الحروب وثقته بماسبق أن أبدوه من البسالة فى حروبهم أيام قايتباى وانتصاراتهم المتتالية بقيادة (أمير الجيوش) أوزبك أتابك العساكر المصرية . ثم لعدم ارتياحه لكل مايأتى من حامل حرف السين . وأخيراً لأن خير بك نائب حلب وسيباى كان يشغل هذا المنصب قبله ولا بد أن بين الأميرين أشياء .

ولم يكن ذلك من المصلحة لأن التغاضى عن نائب حلب جرّأ الغزالى نائب حماه الذى قلّد زميله فى الشمال ولم يحدث طول تاريخ مصر أن تجرّأ العمال والنواب على الاتصال بالأعداء كماحدث فى تلك الأيام ، بل يذكرلنا التاريخ بعض الأمراء الذين حاولوا شيئاً من ذلك فعوقبوا بما يستحقون .

* * *

وقد ظهر علمه وفضله أيام نيابته بالشام ، فكان يجمع العلماء عنده فى كل ليلة جمعة يتذاكرون بين يديه فى أنواع العلوم والفقه وأعدّ لهم سماطاً كبيراً . ولما توترت العلائق مع العثمانيين كان من رأيه ألا يخرج السلطان من مصر ، بل يبقى بها يعد الجيوش وهو فى مأمنه حتى لا تتعرض البلاد للأخطار . وفى سبيل ذلك تحمل الكثير ، وجاءت النتائج محققة لظنه مؤكدة حسن فراسته وبعد نظره ، ولو أخذ برأيه لما وقعت الكارثة ولما زالت عظمة مصر والشام من التاريخ

وقد ذكر ابن إياس وغيره شيئاً من ذلك فقال إنه بعث إلى النورى برسالة جاء فيها : « يامولانا السلطان ، إن الغلاء شديد بالبلاد الشامية وفيها نقص العليق والتبن ، والزرع فى الأرض لم يحصد ، وليس ثمة عدو متحرك فلا يترك السلطان سره ولا يسافر ، وإن كان ثمة عدوفنحن له كفاية » فلم يلتفت السلطان لكلامه واستمر على رأيه

ولم تكن القاهرة مرتاحة لخروج السلطان ، فأخذوا يعيبون عليه أنه خالف ما اعتاد عليه الملوك السابقون فى أشياء كثيرة من ترتيب الجيوش وجمعها . وأخيراً قالوا إنهم كانوا يخرجون فى فصل الربيع والوقت رطب . أما النورى فقرر سفره فى فصل الصيف والجو فى شدة حرارته . ثم أذاعوا أن الملوك إذا ذهبوا للجهاد كانوا يخرجون من الجهات النائية ولا تشعر القاهرة بمواكبهم إلا فى عودتهم من ميادين القتال . وقد خالفهم النورى فى ذلك فشق العاصمة بموكبه عند سفره(١) .

ولكن السلطان لم يكن ليلتفت لشىء من ذلك بل بقى متمسكا برأيه فى جميع الأمور ونفذ ما يريد .

* * *

وتحرك ركاب آخر سلاطين مصر والشام ومعه الجيوش المصرية فى يوم الجمعة ٢٠ ربيع الآخر سنة ٩٢٢ هـ قاصداً الشام عن طريق الريدانية فسرياقوس ثم الصالحية فقطيا إلى غزة التى أقام بها ثلاثة أيام .

ويقول الحلى : « ولما كان السلطان فى غزة وردت إليه مكاتبة من الأمير سيباى يذكر فيها(٢) : الذى يعرضه المملوك على المسامع العالية أعلاها الله تعالى وأدامها أن العبد سمع بأن السلطان يريد السفر لقتال ابن عثمان ، وأن المملوك يقوم بهذا الأمر ويكون السلطان مقيما بمصر وعد المملوك بالعساكر المنصورة . والذى يعلم به مولانا السلطان أن خير بك ملاحى علينا ومكاتيبه لا تنقطع من عند ابن عثمان فى كل حين » فرد عليه النورى ها نحن قد جئنا كم بأنفسنا . ثم أمر برحيل الجيوش والعساكر وهم يموجون كالبحر الزاخر .

* * *

فى يوم الإثنين ١٨ جمادى الأولى سنة ٩٢٢ استقبلت دمشق

---

(١) أحمد بن حنبل

(١) نجد تفاصيل خروج النورى فى ابن إياس

(٢) عن تاريخ حلب للطباخ

العاصمة الثانية الملك الأشرف أبا النصر قانصوه الغوري ، وقد حفظ لنا التاريخ وصف ذلك اليوم الخالد فقالوا : إن موكبه دخل من باب النصر وشق المدينة وخرج منها إلى ناحية القابون العليا ، حيث كان معسكر الجيش وأقام تسعة أيام بمصطبة السلطان . ولم يتفق مثل موكبه لسلطان من سلاطين مصر بعد الأشرف برسباي سنة ٨٢٦ هجرية فدقت البشائر بقلعة دمشق — وكانت عامرة — وزينت المدينة أجمل زينة وفرشت شقق الحرير تحت أرجل خيله ابتداء من جامع سيباي ، ويذكر ابن إياس أن قنصل الفرنجة بدمشق وتجارهم اشتركوا مع الأهلين في الترحيب بملك مصر ونثروا دنانير الذهب عليه وجاء رئيس دار الضرب بدمشق المحروسة المعلم صدقة الإسرائيلي ، فنثر نقوداً من الفضة جديدة ضربت لهذه المناسبة السعيدة

وكان سيباي قد خف إلى ناحية سعسع[1] على طريق مصر ، وقيل إلى طبرية لاستقبال الغوري ، ولما دخل دمشق كان بجوار السلطان يحمل له القبة والجلالة ، كما جرت بذلك المراسم المتادة للملوك المصريين

وسار الغوري إلى حلب ومعه سيباي وأمراء الشام ، وهناك تجمعت جيوش ممالك مصر والشام وحلب استعداداً ليوم مرج دابق — وليس هنا موضع درسه ولا بحثه — وإنما نذكر حادثة وقعت هناك إن دلت على شيء فهو جرأة سيباي وصراحته المتناهية ، وهي أن والي عينتاب[2] ، وكانت من أعمال مصر ، انضم إلى العثمانية ، فلما رأى أهبة المصريين ندم على ما فعله ، وجاء إلى السلطان منضماً إليه تائباً ، فلم تجز عليه حيلته ، وأعدم لتسليمه المدينة ، وكان ذلك بحضور الأمراء والنواب والأعيان ، فقام من بينهم سيباي وقبض على خير بك نائب حلب وجره بين يدي الغوري وقال : « يامولانا السلطان إن أردت أن ينصرك الله على عدوك فاقتل هذا الخائن » فقام الغزالي وقال « يامولانا لا تفتن العسكر ونبدأ في قتال بعضنا بعضاً : وتذهب أخباركم إلى عدوكم ويزداد طمعه فيكم وتضعف شوكتكم والرأي لكم ! »

والتفت السلطان نحوهم وطلب إليهم « بأن يتحالفوا ثانياً ، وألا يخون منهم أحد ، والخائن يخونه الله تعالى وعليه لعنة الله » ثم أمر بأن ينادي بالرحيل ، وتحركت القوى إلى حيث

(١) اسمها الحالي غازي عينتاب وهي داخل الأراضي التركية التي كان جزء كبير منها داخل الأراضي المصرية أيام الغوري .

(٢) بلدة على الطريق .

تلتقي جموع العثمانيين في شمالي حلب على بعد ثلاثين كيلومتراً في وسط سهل مرج دابق ليوم من أيام مصر السود ، وهو يوم الأحد ٢٥ رجب سنة ٩٢٢ ، وهناك كان مثوى ملك الأمراء سيباي آخر من حكم دمشق باسم مصر

* * *

في يوم شديد الحر وقد انعقد الغبار حتى صار لا يرى القاتلون بعضهم بعضاً خطت الأقدار حكمها ضد مصر وجندها فخسروا المعركة بعد يوم لعبت فيه البطولة والخيانة وعظمة النفس مع الكيد وسوء الظن معاً ، وكان على رأس جند الشام سيباي في ميمنة الجيش يقاتل قتال المستميت ، ويصادم مع أمراء مصر لكسب معركة خاسرة . قال الحلي : « ولكنهم مع قلتهم أوقفوا هذا الجيش العظيم ولم يقدر أحد منهم أن يتقدم » . وفي مواجهة العدو وتحت لأمة الحرب سقط أمير الأمراء سيباي الكافلي مع من استشهد في وطيس ذلك النهار

ماذا كان من أثر ذلك اليوم ؟ كان أن أصبحت مصر العظيمة[1] تحت الجزية بعد أن أمضت القرون تفرض الجزية على غيرها

وفي حارة من حارات دمشق على رأس شباك من زاوية يطلق عليها اسم زاوية السلطان عمر بن عبد العزيز أبقى الزمن هذا المرسوم بالخط النسخ المملوكي منقوشاً على الحجر

« مما رسم بالأمر الكريم العالي المولوي السيفي سيباي مولانا ملك الأمراء كافل الشام المحروسة أعز الله أنصاره بأبطال المظلمة المحدثة على حارة القنوات بسبب واقع في النهر وبأبطال الجبايات والحماية وشيخ الحارة » . تلك تحية من الزمن لمصر الخالدة !

* * *

أين عظامه ؟ أين تراثه ؟ أين الأوقاف التي أرصدها على مدرسته بدمشق ؟ أين آثاره بحلب ؟ كل ذلك ذهب مع الريح !

لا لم يذهب شيء ، إن سيباي وغيره باقون مع الزمن ، لأن الدروس التي نتلقاها من الموت والهزيمة أقوى وأشد وقعاً من دروس النصر والغلبة ، وراحة البال والطمأنينة .

أحمد رمزي

القنصل العام السابق لمصر بسورية ولبنان

(حاشية) : سقطت كلمة الأستاذ إمام كرد علي ، وهو العالم الكبير ذي الفضل العظيم في العدد السابق .

(١) هكذا ورد رثاء أورشليم في العهد العتيق .